

## سُورَةُ الْاِنْبِيَاءِ

مكية وهي مائة واثنتا عشرة آية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾ .

﴿ اقْتَرَبَ ﴾ أي دنا ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ أي المشركين ، لأن ما بعده من صفاتهم ﴿ حِسَابُهُمْ ﴾ أي وقت محاسبة الله إياهم على أعمالهم ، والمراد باقتراب حسابهم اقتراب الساعة ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ تامة منه ، ساهون عنه بالمرة ، لأنهم منكرون له ، مع اقتضاء عقولهم أن الأعمال لا بد لها من الجزاء ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ عن الآيات والتذُّر ، والتأهب لذلك اليوم .

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ ﴾ .

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ ﴾ من طائفة نازلة من القرآن ، تذكَّروا ذلك ﴿ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ صفة لذكر ، وفيه دلالة على كمال شناعة ما فعلوا ﴿ مُّحَدَّثٍ ﴾ تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة ﴿ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي إلا استمعوا القرآن حال كونهم مستهزئين به .

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ التَّجْوَىٰ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ .

﴿لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ﴾ حال أخرى، والمعنى: ما يأتيهم ذكر من ربهم في حال من الأحوال، إلا حال استماعهم إياه، لاعبين مستهزئين به، لاهين عنه، لتناهي غفلتهم، وفرط إعراضهم عن النظر في الأمور، والتفكر في العواقب ﴿وَأَسْرُؤُ النَّجْوَى﴾ النجوى: الكلام سراً، ومعنى إسرارها مع أنها لا تكون إلا سراً، أنهم بالغوا في إخفائها، بحيث لم يشعر أحد بأنهم متناجون ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بدل من ضمير «أسروا» منبىء عن كونهم موصوفين بالظلم فيما أسروا به ﴿هَلْ هَذَا﴾ أي قالوا في التناجي: هل هذا يعنون رسول الله ﷺ ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؟ أي من جنسكم، وما أتى به سحر، أتعلمون ذلك؟ ﴿أَفَتَأْتُونَ﴾ أتحضرون ﴿السَّحَرَ﴾ وتقبلونه ﴿وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾؟ أي وأنتم تعاينون أنه سحر؟ قالوه بناءً على أن الرسول لا يكون إلا ملكاً، وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق سحر، فهذا جهل لأن كل ما أتى به الرسول ﷺ من القرآن وغيره، ظاهر الحال لا تمويه فيه، وأنهم قد عرفوا حاله، وعلموا صدقه، إلا أنهم يموهون على ضعفائهم، بمثل هذا القول الكاذب.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ حكاية من جهته تعالى، لما قاله ﷺ بعدما أوحى الله إليه بأحوالهم وأقوالهم، بياناً لانكشاف سرهم، أي قال محمد ﷺ: إن ربي لا يخفى عليه شيء، يعلم قول كل قائل، سراً كان أو جهراً، وعلمه تعالى بالسرّ والجهر، على وتيرة واحدة، لا تفاوت بينهما بالجلاء والخفاء ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي سراً كان أو جهراً ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي المبالغ في العلم بالمسموعات والمعلومات، التي من جملتها ما أسروه من النجوى، فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمٍ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنَسْ بِشَايَةِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ﴾.

﴿ بَلْ قَالُوا ﴾ إضراب من جهته تعالى، وانتقال من حكاية قولهم السابق، إلى حكاية قول آخر، أي لم يقتصروا على أن يقولوا: هل هذا إلا بشر؟ وأنه سحر؟ ﴿ أَضْغَثُ أَحْلَمٍ ﴾ أي تخاليط الأحلام، ثم أضربوا عنه فقالوا ﴿ بَلِ اقْتَرَبَهُ ﴾ أي اخترعه واختلقه من تلقاء نفسه، من غير أن يكون له أصل، ثم قالوا ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ وما أتى به شعر، يخيل إلى السامع معاني لا حقيقة لها، وهكذا شأن المبطل المحجوج، متحير لا يزال يتردد من باطل إلى باطل ﴿ فليأتنا بآية ﴾ جواب شرط محذوف، يفصح عنه السياق، كأنه قيل: إن لم يكن كما قلنا، بل كان رسولاً من الله تعالى، فليأتنا بآية ﴿ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ ﴾ أي مثل الآية التي أرسل بها الأولون كاليد، والعصا ونحوهما، حتى نؤمن به، فرد الله تعالى عليهم بقوله:

﴿ مَاءَ أَمْنَتَ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ مَاءَ أَمْنَتَ قَبْلَهُمْ ﴾ قبل مشركي مكة ﴿ مِّنْ قَرْيَةٍ ﴾ من أهل قرية ﴿ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ يهلك أهلها لعدم إيمانهم، بعد مجيء ما اقترحوه من الآيات ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾؟ أي أفهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ما سألوه، مع كونهم أعتى منهم وأطغى؟ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ جواب لقولهم هل هذا إلا بشر، متضمن لرد ما دسوا تحت قولهم: ﴿ كما أرسل الأولون ﴾ من التعريض بعدم كونه ﷺ مثل أولئك الرسل ﴿ نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ بواسطة الملك ما نوحى من الشرائع والأحكام، كما نوحى إليك من غير فرق بينهما في حقيقة الوحي حسبما يحكيه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحِ

وَالنَّبِيِّينَ ﴿۱﴾ الْآيَةَ ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿۱﴾ أَيِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، فَسَأَلُوا الْوَاقِفِينَ عَلَى أَحْوَالِ الرُّسُلِ السَّالِفَةِ، لِتَزُولَ شَبَهَاتِكُمْ، وَأَمَّا تَعْلُقُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فِي أَنَّ الْعَامِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى فَتْوَى الْعُلَمَاءِ، فَبَعِيدٌ، لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ، خُطَابٌ مُشَافِهَةٌ، وَهِيَ وَارِدَةٌ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ الْمَخْصُوصَةِ، وَمَتَعَلِّقَةٌ بِالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى (۱).

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ ﴿۸﴾ .

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا﴾ بَيَانٌ لِكُونَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أَسْوَةٌ لِسَائِرِ أَفْرَادِ الْجِنْسِ، فِي أَحْكَامِ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ، إِثْرَ بَيَانِ كُونِهِمْ أَسْوَةٌ فِي نَفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، أَيِ وَمَا جَعَلْنَا الْأَنْبِيَاءَ كَالْمَلَائِكَةِ، أَجْسَادًا لَا يَأْكُلُونَ وَلَا يَشْرَبُونَ، بَلْ هُمْ كَسَائِرِ الْبَشَرِ يَمْتَازُونَ عَلَيْهِمُ بِالْوَحْيِ ﴿لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ أَيِ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا مُسْتَغْنِيًا عَنِ الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ، بَلْ مُحْتَاجًا إِلَى ذَلِكَ ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ الْمُرَادُ بِالْخُلُودِ: الْمَكْثُ الْمَدِيدُ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ الْأَبَدِيَّةِ؛ وَهُمْ مُعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فَالْجُمْلَةُ مُقَرَّرَةٌ لِمَا قَبْلَهَا مِنْ كُونَ الرُّسُولِ بَشَرًا لَا مَلَكَاءَ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الرَّدِّ عَلَى قَوْلِهِمْ: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾؟.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿۹﴾ .

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ أَيِ أَوْحِينَا، إِلَيْهِمْ مَا أَوْحِينَا، ثُمَّ صَدَقْنَاهُمْ فِي الْوَعْدِ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ، بِإِهْلَاكِ أَعْدَائِهِمْ ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

(۱) أقول: هذه الآية وإن كانت في أهل الكتاب من علماء اليهود والنصارى، إلا أنه يستأنس بها في أن الرجل العامي ينبغي أن يرجع إلى أهل الفقه والعلم فيما أشكل عليه من أمر الدين.

وغيرهم، ممن تستدعي الحكمة إبقائه، كمن سيؤمن هو، أو من سيؤمن من ذريته، وهو السرُّ في حماية العرب ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أي المجاوزين الحدَّ في الكفر والعصيان، كقوم نوح، وعاد، وthumb.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٠﴾ .

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ كلام مستأنف مسوق لتحقيق حقية القرآن الكريم أي والله لقد أنزلنا إليكم يا معشر قريش ﴿كِتَابًا﴾ عظيم الشأن، نير البرهان ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ صفة لكتاباً، أي فيه شرفكم وصيتكم، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ وقيل: فيه موعظتكم، وهو الأنسب بسياق النظم وسياقه، فإن قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إنكار توبيخي، فيه بعث لهم على التدبر، والتذكر في أمر الكتاب المبين.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءآخَرِينَ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ نوع تفصيل لإجمال قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ وبيان لكيفية إهلاكهم، أي وكثيراً من أهل القرى أهلكتناهم إهلاكاً مريعاً، وفي لفظ القصم الذي هو عبارة عن الكسر، بإبانة أجزاء المكسور، من الدلالة على شدة الغضب ما لا يخفى، بخلاف الفصم وهو كسر بلا إبانة ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي كثيراً قصمنا من أهل قرية، كانوا ظالمين بآيات الله، كافرين بها كدأبكم ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ أي بعد إهلاكها ﴿قَوْمًا ءآخَرِينَ﴾ أي وخلقنا أمة أخرى بعدهم، ففيه تنبيه على استئصال الأولين بالكلية.

﴿فَلَمَّا أَحْسَبُوا بِأَسْنَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا ﴾ أي أدركوا عذابنا الشديد، إدراكاً تاماً ﴿ إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أي يهربون مسرعين، راکضين دوابعهم من فرط الإسراع، والركض: ضرب الدابة بالرجل لتسرع.

﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْتَلُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿ لَا تَرْكُضُوا ﴾ أي قيل لهم بلسان الملائكة استهزاء: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب ﴿ وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ من التثم والتلذذ، والمترف: الذي أبطرته النعمة ﴿ وَمَسْكِنِكُمْ ﴾ التي كنتم تفتخرون بها ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْتَلُونَ ﴾ أي لعلمكم تسألون عمّا جرى عليكم، إذا رُئيت مساكنكم خالية، فتسألون أين أصحابها؟ وهذا كله من باب السخرية والتهكم بهم، جزاء استهزائهم بآيات الله .

﴿ قَالُوا يَا بُولِئْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿ قَالُوا ﴾ لَمَّا يَسُوا من الخلاص بالهرب، وأيقنوا بنزول العذاب قالوا: ﴿ يَا بُولِئْنَا ﴾ أي يا هلاكنا ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي مستوجبين للعذاب، وهذا اعتراف منهم بالظلم، وباستتباعه للعذاب، ومذمّة عليه حين لم ينفعهم الندم .

﴿ فَمَا زَلَّتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ فَمَا زَلَّتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ ﴾ أي فما زالوا يرددون ذلك، وسميت دعوى لأنهم يدعون على أنفسهم بالويل ﴿ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا ﴾ أي مثل الحصيد، وهو المحصود من الزرع ولذلك لم يجمع ﴿ خَمِيدِينَ ﴾ أي ميتين من خمدت النار، إذا طُفئت، وخمد الرجل: أي مات .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنِ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ ﴾ إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم، وإبداع بني آدم، مؤسس على الحكم البالغة، المستتعبة للغاية الجليلة، أي وما خلقنا الوجود وما فيه، من سماوات وأرضين ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من المخلوقات التي لا تُحصى أجناسهم، على هذا النمط البديع، خالية عن الحكم والمصالح ﴿ لَعِينِ ﴾ أي عبثاً وباطلاً، وإنما عبّر عن ذلك باللعب، لكمال نزاهته تعالى عن الخلق، الخالي عن الحكمة، بل إنما خلقناها مشحونة بضروب البدائع، تبصرة للنظار، وتذكرة لذوي الاعتبار، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَهُمْ آلًا لَتَّخَذْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾<sup>(١٧)</sup>.

﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَهُمْ ﴾ يتلهم به ويلعب. ﴿ لَتَّخَذْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا ﴾ أي من جهة قدرتنا، مما يليق بشأننا من الحور العين أو الملائكة، لا من الأجسام المرفوعة، والأجرام الموضوعية، كديدن الجبابرة، في رفع العروش، وتحسينها، وتسوية الفروش وتزيينها، لكن استحيل إرادتنا له، لمنافاته الحكمة، فيستحيل اتخاذنا له قطعاً ﴿ إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ جوابه محذوف ثقةً بدلالة ما قبله عليه، أي إن كنا فاعلين لأتخذناه.

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴾<sup>(١٨)</sup>.

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ إضرابٌ عن اتخاذ اللهو، كأنه قيل: لا نريده بل شأننا أن نغلب الحق الساطع، على الباطل المتزعزع ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ أي فيمحقه بالكلية، كما فعلنا بأهل القرى الظالمة، وقد استعير لإيراد

(١) سورة ص، آية: ٢٧.

الحق على الباطل، القذف الذي هو الرمي الشديد، بالجرم الصلب، ولمحقه للباطل بالدفع الذي هو كسر الدماغ، دَمَعَهُ إذا كسر عظم دماغه، وهو المؤدّي إلى زهوق الروح<sup>(١)</sup> ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي ذاهب بالكلية ﴿وَلَكُمْ أَلْوَيْلٌ مِّمَّا نَصِفُونَ﴾ وعيد لكفرة قریش، أي واستقر لكم الويل والهلاك، من أجل وصفكم له سبحانه، بما لا يليق بشأنه الجليل.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩).

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له تعالى خاصة جميع المخلوقات، خلقاً وملكاً، وتدبيراً وتصرفاً، وإحياء وإماتة، من غير أن يكون لأحد في ذلك دخل ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ منزلة ومكانة وهم الملائكة بإجماع الأمة، عبّر عنهم بذلك تنزيلاً لهم لكرامتهم منزلة المقربين عند الملوك، بطريق التمثيل وهو مبتدأ خبره ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي لا يتعظمون عنها ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يعيون فيها، وصيغة الاستقبال للتنبية على أن عباداتهم بثقلها ودوامها، حقيقة بأن تستحسر منها، ومع ذلك لا يستحسرون.

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (٢٠).

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي ينزهونه في جميع الأوقات، فهم في عبادة دائمة في الليل والنهار ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي لا يتخلل تسبيحهم فتور أصلاً، بفرغ أو بشغل آخر، وتسبيحهم جار مجرى التنفس منا.

(١) شبه الحقّ بشيء صلب، والباطل بشيء هشّ رخو، واستعار لفظ القذف لغلبة الحق على الباطل، فكأنه رمى بشيء صلب على رأس دماغ الباطل، فشقه وحطّمه، ولم يُبق له أثراً؛ ففي الآية استعارة تمثيلية من روائع أساليب البيان.

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهَةً ﴾ توبيخ آخر للمشركين، وتسفيه لأحلامهم في عبادة غير الله، من حجارة صماء بكماء، لا تستطيع خلق شيء، والمعنى: هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة؟ ﴿ مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ أي من مواد الأرض، كالذهب، والفضة، والحجر، والخشب، وتعبد في الأرض؟ ﴿ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾ أي هم يبعثون الموتى مع حقارتهم وجماديتهم؟ كلاً فإن ما اتخذوها آلهة، بمعزل من ذلك، لا تتصف بالقدرة على شيء، فهي ليست بآلهة على الحقيقة، لأن من صفات الإله الحق القدرة على الإحياء والإماتة، والمراد به تجهيلهم والتهكم بهم.

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ ﴾ إبطال لتعدد الإله، بإقامة البرهان على انتفائه، بل على استحالته، أي لو كان في السماوات والأرض، آلهة غير الله، كما هو اعتقادهم الباطل ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ أي لبطلتا بما فيهما جميعاً لما يحدث بين الآلهة من الاختلاف والتنازع، وحيث انتفى التالي عُلِمَ انتفاء المقدم قطعاً، بيان الملازمة أن الإلهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد، بالتصرف فيهما على الإطلاق، تغييراً وتبديلاً، وإيجاداً وإعداماً، فبقاؤهما على ما هما عليه، إمّا بتأثير كل منهما وهو محال، وإمّا بتأثير واحد منهما، فالباقي بمعزل من الإلهية قطعاً<sup>(١)</sup> ﴿ فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ ﴾ أي نزهوه سبحانه

(١) توضيح ذلك أننا لو فرضنا وجود إلهين في الكون، فأراد أحدهما شيئاً وأراد الآخر نقيضه، فإمّا أن تنفذ إرادة كل منهما، وذلك محال لاستحالة اجتماع النقيضين، وإمّا أن تنفذ إرادة واحد منهما دون الآخر، فيكون الأول الذي تنفذ إرادته، هو الإله الحقيقي القادر، والثاني هو العاجز الذي لا يقدر على شيء، فلا يصلح أن يكون إلهاً، ولو كان =

عما لا يليق به من الأمور ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ صفة للاسم الجليل، مؤكدة لتنزهه عز وجل أي خالق العرش العظيم ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي فسبحوه عما يصف به أهل الجهل والإلحاد، من وجود آلهة معه، أو نسبة الزوجة له والولد.

﴿لَا يُسْتَلُّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ ﴿٢٣﴾

﴿لَا يُسْتَلُّ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ بيان أنه تعالى لعظمته، ليس لأحد من مخلوقاته، أن يناقشه ويسأله عما يفعل، ولو اعترض على السلطان بعض عبيده مع وجود التجانس، وجواز الخطأ عليه لاستتبح ذلك منه، وعُدَّ سفهاً، فمن هو مالك الملك الحقيقي، وفعله صواب كله، أولى بأن لا يُعترض عليه، فلا يملك أحد أن يقول ياربِّ لم فعلت ذلك؟ ﴿وَهُمْ﴾ العباد ﴿يُسْتَلُونَ﴾ عما يفعلون نقيراً أو قطميراً، لأنهم عبيد له تعالى.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ إضراب وانتقال من إظهار بطلان اتخاذهم تلك الآلهة، وتبكيتهم بإلجائهم إلى إقامة البرهان على دعواهم الباطلة، وتحقيق أن جميع الكتب السماوية، ناطقة بحقية التوحيد، وبطلان الاشتراك ﴿قُلْ﴾ لهم بطريق التبكيث ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على ما تدعونه من جهة العقل والنقل، فإنه لا صحة لقول لا دليل عليه، لا سيما في مثل هذا الشأن الخطير، وفي ذكر البرهان ضرب من التهكم بهم ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ أي هذا الوحي، المتضمن للبرهان القاطع العقلي، ذكر أمتي، أي

= في الوجود غير الله سبحانه، لفسد نظام الكون، لما يقع بين الآلهة من التنازع والتصادم، كما لا يصح أن يكون في بلد واحد ملكان، ولا في إدارة واحدة رئيسان، إنما يمكن أن يكون رئيس ونائبه، ورئيس جمهورية ونائبه.

عظمتهم، وذكر الأمم السالفة قد أقمتها، فأقيموا أنتم أيضاً برهانكم، وانظروا هل في واحد من الكتب السماوية غير الأمر بالتوحيد، والنهي عن الإِشْرَاق؟ ففيه تبكيت لهم، متضمنٌ لإثبات نقيض مدعاهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ انتقال من الأمر بتبكيتهم، إلى بيان أنه لا ينجع فيهم المحاجة، بإظهار حقيقة الحق، فإن أكثرهم لا يفهمون الحق ﴿فَهُمْ﴾ لأجل ذلك ﴿مُعْرَضُونَ﴾ أي مستمرون عن الإِعْرَاض عن التوحيد، واتباع الرسول ﷺ، لا يراعون عما هم عليه من الغي والضلال.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٢٥﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ استئناف مقرر من كون التوحيد، ممّا نطقت به الكتب الإلهية، وأجمعت عليه الرسل عليهم السلام، أي وما أرسلنا قبلك يا محمد رسولا من الرسل، إلا أوحينا إليه، أنه لا إله ولا معبود بحق، إلا الله رب العالمين، فخصّوه بالعبادة، ولا تشركوا معه أحداً.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ حكاية لجناية فريق من المشركين وهم حي من خزاعة، يقولون: الملائكة بناتُ الله، وأضافوا إلى ذلك هذه الفرية، أنه تعالى صاهر الجنّ، على ما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾<sup>(١)</sup> ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزهه بالذات تنزهه اللائق به ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ إضراب وإبطال لما قالوه، كأنه قيل: ليست الملائكة كما قالوا،

(١) سورة الصافات، آية: ١٥٨.

بل هم عبادٌ له تعالى ﴿مُكْرَمُونَ﴾ مقرَّبون عنده، وليسوا بأولاد، إذ العبودية تنافي الولادة.

﴿لَا يَسْفِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٧﴾

﴿لَا يَسْفِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي لا يسبق قولهم قوله تعالى، شأنهم شأن العبيد المؤدبين، الذين لا يفعلون شيئاً بدون إذن ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ بيانٌ لتبعيتهم له تعالى في الأعمال، كأنه قيل: هم بأمره يقولون، وبأمره يعملون، لا بغير أمره.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي علمه تعالى محيط بهم، لا تخفى عليه من أمورهم خافية، ولعلمهم بإحاطته تعالى، بما قدّموا وأخروا، من الأقوال والأعمال، لا يزالون يراقبون أحوالهم، فلا يُقدِّمون على قول، أو عمل، بغير أمره تعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ مهابةً منه تعالى ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ أي لمن رضي الله تعالى عنه، من أهل التوحيد ﴿وَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ عزٌّ وجلٌّ ﴿مُشْفِقُونَ﴾ مرتعدون خائفون حذرون والإشفاق: الخوف مع الاعتناء، أشفقت من كذا: حذرتُ وخفتُ منه، وأشفقتُ على الصغير: حنوتُ وعطفْتُ عليه.

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ أي من الملائكة ﴿إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ﴾ متجاوزاً إياه ﴿فَذَلِكَ﴾ الذي فُرض قوله، وهو فرضُ محال ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ كسائر

المجرمين، ولا يغني عنهم ما ذكر من صفاتهم السيئة، وأفعالهم المرضية، وفيه الدلالة على عزة جبروته تعالى، واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم في حقهم ما توهمه أولئك الكفرة ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء، نجزي من ظلم بالإشراك بالله، وتعدى الحدود.

﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففلقنهما وجعلنا من الماء كل شيء حيّ أفلا يؤمنون﴾ (٣٠).

﴿أولم ير الذين كفروا﴾ استفهام توبيخ لهم، بتقصيرهم في التدبر في الآيات التكوينية الدالة على استقلاله تعالى بالألوهية، والهمزة للإنكار، والرؤية قلبية، أي ألم يتفكروا ويعلموا ﴿أن السموات والأرض كانتا رتقاً﴾ الرتق الضم والالتحام، أي كانتا ذواتا رتق، وكانتا شيئاً واحداً، والرتق: ضد الفتح قال ابن عباس: كانت السماء رتقاً لا تمطر، والأرض رتقاً لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات<sup>(١)</sup> ﴿ففلقنهما﴾ أي فصلنا بينهما بالتنوع والتمييز، وتلاصق الأرض بالسماء، وتباينهما جائزان في العقل، فالفتق عارضٌ مفتقر إلى مؤثر قديم، ولا شك أنه هو الله العلي الكبير، وفي هذه الآية الكريمة دعوة إلى البحث العلمي في مجال الكون الفسيح، ليستدل الإنسان على قدرة الله الباهرة في مخلوقاته. ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حيّ﴾ أي وجعلنا الماء أصل كل الأحياء، وسبباً للحياة:

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٣٤٨/٥ أقول: هذا القول لابن عباس جميل، ولا ينافي ما يقوله علماء الطبيعة أن الأرض والمجموعة الشمسية، كانت قطعة واحدة، فانفصلت الأرض عن المجموعة الشمسية، وتبردت قشرتها فظهرت فيها البحار والأنهار، ويستدلون على صحة ذلك، بما في باطن الأرض من مواد ملتبهة، تقذف بين حين وآخر بالحمم والغازات والبراكين الثائرة، بل في هذا القول سبق علمي للقرآن الكريم كالذي أخبر قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، عن التصاق الأرض بالسموات وبالمجموعة الشمسية.

للإنسان، والنبات والحيوان، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾<sup>(١)</sup> أي من نطفة ويدخل في ذكر الماء النباتات والأشجار، لأن الماء من أعظم موادها ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ إنكار بعدم إيمانهم لله وحده، مع ظهور ما يوجبه من الآيات الأفاقية والأنفسية، الدالة على تفرده عز وجل بالألوهية.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي جبلاً ثوابت ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي كراهة أن تميل بهم وتضطرب بالبشر ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض أو في الجبال ﴿فِجَاجًا﴾ أي مسالك واسعة، جمع فج وهو الطريق الواسع ﴿سُبُلًا﴾ وإنما قدم «فِجَاجًا» مع أنه وصف، ليفيد أنه تعالى خلقها، ووسّعها للسابلة، مع ما فيه من التأكيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى مصالحهم ومهماتهم.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ أي محفوظاً من الوقوع بقدرته، أو من استراق السمع بالشهب كما قال الله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا﴾ الدالة على وحدانيته تعالى، وعلمه، وحكمته، وقدرته، ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يتدبرون فيها، فيبقون على ما هم عليه من الكفر والضلال.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) سورة النور، آية: ٤٥.

(٢) سورة الحجر، آية: ١٧.

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ بيان لبعض الآيات الكونية، أي خلق الليل لتسكنوا فيه، والنهار لتتصرفوا فيه، والشمس لتكون سراج النهار، والقمر ليكون سراج الليل ﴿ كُلُّ ﴾ أي كل من الشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والليل والنهار ﴿ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي يجرون ويسيرون بسرعة، كالسباح في الماء، والفلك: مدار النجوم، وهو في كلام العرب كلُّ شيء مستدير، وجمعه أفلاك، واختلف العلماء فيه، فقال بعضهم: الفلك ليس بجسم، وإنما هو مدار هذه النجوم، وهو قول الضحاك، وقال الأكثرون: هي أجسام تدور النجوم عليها، وهذا أقرب إلى ظاهر القرآن، والحق أنه لا سبيل إلى معرفة صفات السماوات إلا بالخبر القاطع.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِإِنْسَانٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ (٢٤).

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِإِنْسَانٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ ﴾ أي الدوام في الدنيا، لكونه مخالفاً للحكمة التشريعية ﴿ أَفَإِنْ مِتَّ ﴾ بمقتضى حكمتنا ﴿ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ نزلت حين قالوا: ﴿ نَتَرَبَّصُّ بِه رَبِّبَ الْمُنُونِ ﴾ كأنه قيل: أفان متَّ أفهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك؟.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٥).

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ أي ذائقة مرارة الموت ﴿ وَنَبَلُّوكُم ﴾ الخطاب للناس كافة، أي نعاملكم معاملة من يبلوكم ﴿ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ ﴾ بالبلايا والنعمة ﴿ فِتْنَةً ﴾ أي ابتلاء مصدر مؤكّد لنبلوكم من غير لفظه ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ لا إلى غيرنا، فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال، فهو وعدٌ ووعدٌ.

﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٢٦).

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِتَّخَذُواكَ إِلاَّ هُزُوًا﴾ أي وإذا رآك الكفرة المجرمون ما يتخذونك يا محمد إلا مهزوءاً به، كأنه قيل ما يفعلون بك إلا الهزاء ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُءَالِهَتَكُمْ﴾ على إرادة القول، أي يقولون: أهذا الذي يذكر آلهتكم بسوء؟ وإنما أطلقه لدلالة الحال، فإن ذكر العدو لا يكون إلا بسوء ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ والمعنى: إنهم يعيبون الرسول أن يذكر آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع بالسوء، والحال أنهم بذكر الرحمن المنعم عليهم كافرين، فهم أحقاً بالغيب والإنكار، وأن يُهزأ بهم، وتكرار الضمير (هم) للتأكيد.

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ ﴿٣٧﴾

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ جعل لفرط استعجاله، وقلة صبره، كأنه مخلوق من العجل، على سبيل المبالغة، تنزيلاً لما طبع عليه من الأخلاق الرديئة، وقلة الصبر بالمخلوق من العجلة، ومن عجلته استعجاله بالوعيد، كقول: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾ (١) الآية ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ تلوين للخطاب بطريق التهديد والوعيد، أي سأريكم نعماتي في الدنيا وعذابي في الآخرة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي فلا تتعجلوا الشيء قبل أوانه، فإن كل ما هو آت قريب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٨﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي متى وقت مجيء الساعة، التي كانوا يوعدون؟ وإنما كانوا يقولونه بطريق الاستهزاء، لا طلباً لتعيين وقته بطريق الإلزام ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في وعدكم، والخطاب للرسول ﷺ والمؤمنين، الذين كانوا يتلون الآيات الكريمة، المنبئة عن مجيء الساعة،

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٢.

وجوابُ الشرط محذوف بدلالة ما قبله، كأنه قيل: فلتأتنا بسرعة إن كنتم صادقين.

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٣٩).

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه، وأنهم إنما يستعجلونه لجهلهم بشأنه، وهو الذي هوّته عندهم ﴿حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ أي لو عرفوا فظاعة العذاب الذي يستعجلونه، حين لا يستطيعون دفع العذاب عن وجوههم ولا عن ظهورهم لما استعجلوا الوعيد<sup>(١)</sup>، وذلك حين تحيط بهم النار من كل جانب ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي وليس لهم ناصر ينقذهم من عذاب الله.

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (٤٠).

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ﴾ أي بل تأتيهم القيامة والساعة ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي فتغلبهم وتدهشهم أو تحيرهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ عنهم بالكلية ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي يمهلون ليستريحوا طرفة عين.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤١).

(١) جواب «لو» محذوف لأنه أبلغ في التهديد والوعيد، أي لو يعلم هؤلاء الكفار ما سيلقونه من أنواع الكرب والعذاب، لما استعجلوا نزوله، ولكنهم سفهاء جهلة.

﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ تسليّة للرسول ﷺ عن استهزائهم في ضمن الاستعجال، وتصديرها بالقسم لزيادة تحقيق مضمونها، أي وبالله لقد استهزىء برسول كرام، ذوي عدد كثير من قبلك ﴿ فَحَاقَ ﴾ أي أحاط ونزل وحلّ، فإن معناه يدور على الشمول واللزوم، ولا يكاد يستعمل إلا في الشر ﴿ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ﴾ أي من أولئك الرسل عليهم السلام ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي فنزل بهم جزاء استهزائهم، وجنوا ثمرة استهزائهم، هلاكاً وعقاباً في الدنيا والآخرة، فكذلك حال هؤلاء المستهزئين.

﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ خطاب للرسول ﷺ، إثر تسليته بما ذكر، وأمرٌ له بأن يقول لأولئك المستهزئين أي من يحفظكم بالليل والنهار ﴿ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ أي من بأسه إن أراد بهكم، وهذا كقول الرجل لمن حصل في قبضته: إلى أين مفرك؟ هل لك محيص؟ يُقال: كَلَّاهُ اللهُ كَلَاءَةً: حفظه ﴿ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ أي لا يُخطرونه ببالهم، فضلاً أن يخافوا بأسه.

﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا ﴾ الهمزة للإنكار والمعنى: ألهم آلهة تمنعهم من العذاب، هم معولون عليها، واثقون بحفظها؟ وفي توجيه الإنكار والنفي إلى الآلهة، لا إلى نفس الصفة، بأن يقال: أم تمنعهم آلهتهم؟ من الدلالة على سقوطها، عن مرتبة الوجود، فضلاً عن رتبة المنع ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ أي هم لا يستطيعون

أن ينصروا أنفسهم ولا يصحبون بالنصر من جهتنا، فكيف يتصور أن ينصروا غيرهم؟ وحماية النفس أولى من حماية الغير.

﴿ بَلْ مَنَعْنَا هَتُولَاءَ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾ .

﴿ بَلْ مَنَعْنَا هَتُولَاءَ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ إضراب عما توهموا، ببيان أنه تعالى متعمه بالحياة الدنيا، وأمهلهم حتى طالت أعمارهم، فحسبوا أن لا يزالوا كذلك، وما حملهم على الإعراض، إلا الاغترار بطول المهلة، فسوا عهدنا وجهلوا نعمتنا واغتروا، ولذلك عقبه بما يدل على أنه طمع فارغ، حيث قال ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ أي ألا ينظرون ولا يرون ﴿ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ ﴾ أي أرض الكفرة ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بموت أهلها وغلبة المسلمين عليهم، فكيف يتوهمون أنهم ناجون من بأسنا؟ وهو تمثيل لما يُجرية الله عزَّ وجل من ديارهم، على أيدي المسلمين، ويضيفها إلى ديار الإسلام، فما هو حول مكة ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾؟ عليه ﷺ والمؤمنين؟ كأنه قيل أبعدهم ظهور ما ذكر، ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم؟ إن كل ذلك من العبر، التي لو استعملوا عقولهم، لأعرضوا عن جهلهم، وتزينوا بزينة الإسلام والمسلمين.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ ﴾ أي إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة ﴿ بِالْوَحْيِ ﴾ الصادق، الناطق بإتيانها، أي إنما شأنى أن أنذركم، بالإخبار بذلك، لا بالإتيان بها، فإنها مزاحم للحكمة التكوينية والشرعية ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ أمر ﷺ بأن يقول لهم ذلك، توبيخاً وتسجيلاً عليهم بكمال الجهل والعناد، أي ولكنكم أيها المشركون - لشدة

جهلكم وعنادكم - كالمُصمِّ الذين يسمعون الكلام والإنذار<sup>(١)</sup>، فلا يتعظون ولا ينجرون.

﴿وَلَيْنَ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا نَوِيلَانَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾<sup>(٤٦)</sup>.

﴿وَلَيْنَ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أي ولئن أصابهم شيء يسير خفيف، مما أنذروا به من عذاب الله، ولو كان أدنى شيء من العذاب، كالهبة، والسُّمة، واللَّفحة ﴿لَيَقُولُنَّ يَا نَوِيلَانَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي ليقولنَّ معترفين بجريمتهم: يا هلاكنا ودمارنا لقد كنا ظالمين لأنفسنا بتكذيبنا رسل الله، وفي الآية إشارة إلى أن أهل الغفلة والشقاوة، لا ينتبهون حتى يمسهم أثر من آثار عذاب الله، فينادون عند ذلك بالويل والثبور.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾<sup>(٤٧)</sup>.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ أي نقيم الموازين العادلة، التي توزن بها صحائف الأعمال ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ التي كانوا يستعجلونها ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ من النفوس ﴿شَيْئًا﴾ حقاً من حقوقها بل يوفى كل ذي حق حقه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي مقدار حبة، فإن حبة الخردل مثلٌ في الصغر ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي أحضرنا ذلك الميثقال للوزن ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا، والغرض منه

(١) شبههم تعالى بالصم - أي الطرش - وهم صحاح الحواس، لأنهم إذا سمعوا ما يندرون به من آيات الله الجليلة، لا تعيه آذانهم، فكانت حالهم كحال الذين عدمو السماع، فلا يستمعون ولا يعون.

التحذير، فإن المحاسب إذا كان في العلم، بحيث لا يمكن أن يشبهه عليه شيء، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء، فحقيق بالعاقل أن يكون بأشد الخوف منه.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ المراد بالفرقان هو التوراة وكذا بالضياء والذكر، أي وباللّه لقد آتيناها كتاباً، جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل، وضياءً يستضاء به في ظلمات الجهل، وذكراً يتعظ به الناس، وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره.

﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ ﴿٤٩﴾ .

﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ أي عذابه، صفة مادحة للمتقين ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ أي يخشون عذابه تعالى، وهو غائب عنهم، وقيل: يخافونه في الخلوات، وهذا هو الأقرب ﴿ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ أي خائفون منها وتخصيص إشفاقهم من الساعة للإيدان بهولها وشدتها.

﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لِمُمْكِرُونَ ﴾ ﴿٥٠﴾ .

﴿ وَهَذَا ﴾ القرآن الكريم ﴿ ذِكْرٌ ﴾ يتذكر به من يتذكر ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ كثير الخيرات، غزير النفع ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ على الرسول ﷺ ﴿ أَفَأَنْتُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ لِمُمْكِرُونَ ﴾ إنكاراً لإنكارهم، كأنه قيل: أبعده ما علمتم أن شأنه كشأن التوراة، منزل من عند الله، أنتم منكرون؟ فمثل هذا الكتاب مع كثرة منافعه، كيف يمكنكم إنكاره؟

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكرام، المستند إلى الهداية الخاصة، الحاصلة بالوحي، والاعتدال على إصلاح الأمة ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل إيتاء موسى وهارون التوراة ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ أي بأنه أهل لما آتيناه من الوحي والفضل .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴾ أي اذكر وقت قوله لهم ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾؟ لتقف على كمال رشده، والتماثل: الصورة المصورة، وهذا تجاهل منه عليه السلام، كأنه لا يعرف أنها حجر أو شجر، اتخذوها معبوداً؟ وعبر عن عبادتهم لها بمطلق العكوف قصداً إلى تحقيرها، وتوبيخاً لهم على إجلالها ومعنى ﴿ عَاكِفُونَ ﴾ أي مقيمون على عبادتها .

﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ أجابوا بذلك، لما لم يكن لهم حجة، فالتجأوا إلى التقليد لأبائهم الضالين، ولهذا أبطله بطريق القسم المؤكد حيث قال :

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْرَاءَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْرَاءَ آبَاؤُكُمْ ﴾ الذين سنوا لكم هذه السنة الباطلة ﴿ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ عجيب ﴿ مُبِينٍ ﴾ ظاهر بيّن، بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونه كذلك، فالباطل لا يصير حقاً بكثرة المتمسكين به .

﴿ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴾ ﴿٥٥﴾ .

﴿ قَالُوا ﴾ لما سمعوا مقالته، استبعاداً لكون ما هم عليه ضلالاً، وتعجباً من تضليله إياهم ﴿ أَجِئْنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي بالجِدِّ والصدِّق ﴿ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴾؟ أو تقوله على وجه المزاح؟ ظنوا أن ما قاله لهم على وجه المداعبة.

﴿ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ﴿٥٦﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام مبيناً عقيدة التوحيد ﴿ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ ﴾ وصفه تعالى بإيجادهن تحقيقاً للحق، وتنبيهاً على أن ما لا يكون كذلك بمعزل من الربوبية، أي أنشأهن بما فيهن، من المخلوقات التي من جملتها أنتم وآبائكم، وما تعبدونه ﴿ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ ﴾ الذي ذكرته، من كون ربكم رب السماوات والأرض فقط، دون ما عداه كائناً ما كان ﴿ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أي العالمين به على سبيل الحقيقة.

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ ﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ ﴾ أي لأجتهدن في كسرها، وإنما قاله سراً، وقيل سمعه رجل ﴿ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ ﴾ من عبادتها إلى عيدكم.

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذًا ۖ إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾ .

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذًا ﴾ أي قطعاً وحطاماً، من الجذِّ الذي هو القطع، روي أن قومه خرجوا به في يوم عيد لهم، فبدؤوا ببيت الأصنام، وكانت سبعين صنماً مصطفاً، وثمة صنم عظيم من ذهب، وفي عينيه جوهرتان، تضيئان

بالليل، فدخلوه فسجدوا لها، ووضعوا بينها طعاماً، وقالوا إلى أن نرجع تكون الإلهة قد باركت على طعامنا، فذهبوا وبقي إبراهيم عليه السلام، فكسر الكلّ بفأس، ولم يبق إلا الكبير، وعلق الفأس في عنقه، وذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرَاهُمْ﴾ أي للأصنام ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى الصنم الكبير ﴿يَرْجِعُونَ﴾ أي يرجعون إليه فيسألونه عن الكاسر، لأن من شأن المعبود، أن يُرجع إليه في الملمات.

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ .

﴿قَالُوا﴾ حين رجعوا من عيدهم ورأوا ما رأوا ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾ على طريقة الإنكار والتشنيع ﴿إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؟ لجرأته على إهانتها وتحطيمها.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُٗٓ إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿٦٠﴾ .

﴿قَالُوا﴾ أي بعض منهم مجيبين للسائلين ﴿سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ﴾ أي يعيهم، فعله فعل ذلك بها ﴿يُقَالُ لَهُٗٓ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي يطلق عليه هذا الاسم، وكانوا قد سمعوا ما يقول في آلهتهم، ولو لم يكن إلا قوله عليه السلام ﴿ما هذه التماثيل﴾ لكفى ذلك إهانة لها!!

﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ ﴿٦١﴾ .

﴿قَالُوا﴾ أي السائلون ﴿فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ﴾ أي بمرأى منهم، بحيث لا يخفى على أحد ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي يحضرون عقوبتنا له.

﴿قَالُوا ۗ أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿٦٢﴾ .

﴿ قَالُوا ﴾ أي أتوا به، ثم قالوا: ﴿ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِأَهْلِنَا يَا تَبْرَاهِيمُ؟﴾ مخاطبتهم إياه، للتنبيه على أن إتيانهم به عليه السلام أمر محقق، فهو المتهم الأوحده، الذي لا يجرؤ أحد غيره على تكسير الأصنام.

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ أي حطمها وهشمها هذا الصنم الكبير، مشيراً إلى الذي لم يكسره، سلك عليه السلام معهم مسلكاً تعريضياً، يؤديه إلى مقصده، الذي هو إلزامهم الحجة، على اللطف وجه، بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم، العاجزة عن دفع الضر عن أنفسها، مع ما فيه من التوقي من الكذب، والغرض تبكيتهم وإقامة الحجة عليهم، ولهذا قال ﴿فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ أي إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا، وإنما لم يقل: إن كانوا يسمعون، أو يعقلون، مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً، لما أن نتيجة السؤال هو الجواب، وأن عدم نطقهم أظهر، وتبكيتهم بذلك أدخل، وقد حصل ذلك حسبما نطق به قوله تعالى:

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي راجعوا عقولهم، وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه، ولا على الإضرار بمن كسره، فكيف يستحق أن يكون معبوداً؟ ﴿فَقَالُوا﴾ أي بعضهم لبعض فيما بينهم ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي بعبادة الأصنام، فإن من لا يدفع عن رأسه الفأس، كيف يدفع عن عابديه البأس؟

﴿ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ أي انقلبوا إلى المجادلة بالباطل، بعدما استقاموا بالمراجعة، وقد أجرى الله الحق على لسانهم في القول الأول، ثم أدركتهم الشقاوة فأخذوا في المكابرة، أي انقلبوا في الحجة، واحتجوا على إبراهيم، بما هو الحجة له عليهم<sup>(١)</sup>، فقالوا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ أي والله لقد علمت أن ليس من شأنهم النطق، فكيف نسألهم؟

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام مبكِّتاً لهم ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي متجاوزين عبادته تعالى ﴿ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا ﴾ من النفع ﴿ وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ إن تركتم عبادته، وتتركون عبادة الواحد الأحد!؟.

﴿ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

﴿ أَفِ لَكُمْ ﴾ أي تبتاً لكم ﴿ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ تَضَجَّر من إصرارهم على الباطل، وأنكر عبادتهم لها، بعد اعترافهم بأنها جمادات ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾؟ أي أليس لكم عقل تعقلون قبح صنيعكم؟ فلما لزمتهم الحجة، وعجزوا عن الجواب.

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾.

(١) شبه تعالى رجوعهم عن الحق إلى الباطل، بانقلاب شخص في صورته وشكله، بحيث تصبح رجلاه إلى الأعلى ورأسه إلى الأسفل، فكيف يمشي على رجله، وكيف يفكر بعقله؟ وإنه لتمثيل رائع بادي الحسن والجمال.

﴿ قَالُوا ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿ حَرِّقُوهُ ﴾ فإنه أشد العقوبات ﴿ وَأَنْصُرُوا آلَ الْهَتَكُم ﴾ بالانتقام لها ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَنَعِلِينَ ﴾ أي للنصر، ولما عجزوا عن المحاجة قالوا ذلك، وهكذا ديدن المبطل المحجوج، روي أنهم لما أجمعوا على إحراقه، حبسوه في بيت، وبنوا له حظيرةً بكوثى، قرية من قرى الأنباط، وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾<sup>(١)</sup> ثم جمعوا له الحطب، فأوقدوا ناراً عظيمة، حتى إن كانت الطير لتمر بها، وهي في أقصى الجو، فتحترق من شدة وهجها، ولم يكد أحد يحوم حولها، فلما أرادوا أن يلقوه، لم يعلموا كيف يلقونه، صنع لهم رجل المنجنيق، ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام، فقيّدوه ووضعوه في المنجنيق، مقيداً ومغلولاً، فرموا به فيها، فجعل الله عزَّ وجلَّ النار روضة عليه، وبستاناً يتنعم فيه فذلك قوله تعالى:

﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي أبردي برداً غير ضار، ولم تحرق النار إلا وثاقه<sup>(٢)</sup>، وقيل: كانت النار على حالها، لكنه تعالى دفع عنه أذاها، كما يشعر به ظاهر قوله تعالى على إبراهيم.

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ .

(١) سورة الصافات، آية: ٩٧ .

(٢) فإن قيل: كيف خاطب الله النار مع أنها لا تعقل؟ الجواب: أن خطاب التكوين لا يختص بمن يعقل، مثل قوله تعالى: ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ ﴾ وقوله: ﴿ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ فهذا خطاب التكوين لا يختص بالعقلاء ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أما خطاب التكليف فهذا الذي يشترط فيه العقل ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وهذا خلاصة القول بين الخطاب التكويني والخطاب التكليفي .

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ أي مكرراً عظيماً في الإضرار به ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ أي أخسر من كل خاسر، حيث عاد سعيهم في إطفاء نور الحق، برهاناً قاطعاً على أنه عليه السلام على الحق، وهم على الباطل.

﴿وَبَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٧١).

﴿وَبَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ أي من العراق إلى الشام، روي أنه آمن لإبراهيم عليه السلام رجالاً من قومه، حين رأوا ما صنع الله به، وآمنت به سارة، وتبعه «لوط» وكان ابن أخيه، فخرج مهاجراً إلى ربه، ومعه لوط، وسارة، فنزل حران، ثم خرج منها فقدم مصر، ثم خرج فنزل أرض فلسطين.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (٧٢).

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي عطية وهبة زيادة على ما سأل، وهو يعقوب عليه السلام ﴿وَكُلًّا﴾ أي كل واحد من هؤلاء الأربعة ﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ بأن وفقناهم للصلاح في الدين والدنيا، فصاروا كاملين، عابدين، صالحين.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (٧٣).

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً﴾ لدعائه عليه السلام بقوله: ﴿وَمَنْ ذُرِّيَّتِي﴾ ﴿يَهْدُونَ﴾ أي الأمة إلى الحق ﴿بِأَمْرِنَا﴾ لهم بذلك ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ ليحثوهم عليه، فيتم كمالهم، بانضمام العمل إلى العلم ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ وهو من عطف الخاص على العام، دلالة على

فضله أي أمرناهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة ﴿وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِن﴾  
موحدين، مخلصين في العبادة.

﴿وَلَوْ طَاءَ أَيْنَنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَجِينَهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ  
الْخَبِيثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسِقِين﴾ ﴿٧٦﴾ .

﴿وَلَوْ طَاءَ أَيْنَنَهُ حُكْمًا﴾ حكمة ونبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ بما ينبغي علمه للأنبياء  
عليهم السلام من الوحي ﴿وَبَجِينَهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ﴾  
يعني اللوطة، وصفت بصفة أهلها ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسِقِين﴾ تعليل  
له، أي أشراراً، خارجين عن الطاعة.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ .

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أي أدخلناه في أهل رحمتنا ﴿إِنَّهُ مِنَ  
الصَّالِحِينَ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ  
الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٧٦﴾ .

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى﴾ أي دعا الله على قومه بالهلاك ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من  
قبل هؤلاء المذكورين ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي دعاه الذي من جملته قوله:  
﴿إِنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَظِرُ﴾ ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وهو  
الطوفان، وأصل الكرب: الغم الشديد.

﴿وَنَصَّرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ  
فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ .

﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي نصرناه ومنعناه من شر قومه المكذبين الضالين، فنجيناه وأهلكناهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ ﴾ تعليل لما قبله ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لاجتماع الأمرين، تكذيب الحق، والانهماك في الشر، فإنهما لم يجتمعا في قوم إلا وأهلكهم الله تعالى.

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ أي اذكر خبرهما وقت حكمهما ﴿ فِي الْحَرْثِ ﴾ في حق الحرث ﴿ إِذْ نَفَسَتْ ﴾ تفرقت وانتشرت، النفس: أن تنتشر الغنم بالليل، ترعى بلا راع ﴿ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾ ليلاً بلا راع، فرعته وأفسدته ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ ﴾ أي لحكم الحاكمين ﴿ شَاهِدِينَ ﴾ أي حاضرين إذ كان بعلمنا، ولا يخفى علينا.

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَايَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ الضمير للحكومة أو الفتيا، رُوي أنه دخل على داود عليه السلام رجلاً، فقال أحدهما: إن غنم هذا دخلت في حرثي ليلاً، فأفسدته فلم تبق منه شيئاً، ففضي له بالغنم، فخرجا فمراً على سليمان، وهو ابن عشر سنين، فأخبراه بذلك، فقال: غير هذا أرفق بالفريقين، فسمعه داود فدعاه، وقال له: كيف تقضي؟ فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الأرض، لينتفع بدرّها ونسلها، وتدفع الحرث إلى أرباب الغنم، ليقوم عليه حتى يعود إلى ما كان، ثم يترادأ، فقال: القضاء ما قضيت الحكم بذلك، وكان هذا في شريعتهم، وقال مجاهد: كان هذا صلحاً، وما فعله داود حكماً، والصلح خير.. وفي قوله تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا ﴾

سُلَيْمَنَ ﴿ دليل على رجحان قوله، ورجوع داود إليه، مع أن الحكم المبنى على الاجتهاد، لا ينقض باجتهاد آخر، وإن كان أقوى منه وقال قوم: إن داود وسليمان عليهما السلام حكما بالوحي، فكان حكم سليمان ناسخاً لحكم داود، ومن غرائب أحكام داود وسليمان عليهما السلام، ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه. أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كانت امرأتان معهما ابناهما، فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود، ففضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان فأخبرته، فقال: ائتوني بالسكين أشقّه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها، ففضى به للصغرى»<sup>(١)</sup> ﴿ وَكَلَّاءَ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ أي كل واحدٍ منهما آتينا حكماً وعلماً كثيراً، وهذا يدل على أن خطأ المجتهد، لا يقدر في كونه مجتهداً، روى الشيخان عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر»<sup>(٢)</sup> ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ ﴾ شروع في بيان ما يخص بكل منهما من إكراماته تعالى، إثر بيان إكراماته العامة لهما ﴿ يُسَيِّحْنَ ﴾ أي يقدّسن الله معه، بصوت يتمثل له ﴿ وَالطَّيْرَ ﴾ أي والطيور مسخرات له ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ أي من شأننا أن نفعل أمثاله، فليس ذلك ببدع منا، وإن كان بديعاً عندكم.

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَكُمْ ﴾ أي وعلمنا داود صنع الدروع بإلانة

(١) الحديث أخرجه البخاري ٥٥/١٢ ومسلم رقم ١٧٢٠ في الأفضية.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام ٣١٨/١٣ ومسلم رقم ١٧١٦ في الأفضية.

الحديد له، وهو أول من صنعها، وأتخذها حلقاً، وكانت من قبل صفائح ﴿لِنُحْصِنَكُمْ﴾ أي لتقيدكم ﴿مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي في الحرب حين قتال الأعداء ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾؟ أمرٌ واردٌ على صورة الاستفهام للمبالغة، أي اشكروا الله على ذلك.

﴿وَلَسَلَيْمَنَّ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ (٨١).

﴿وَلَسَلَيْمَنَّ الرِّيحَ﴾ أي سخرنا له الريح تنقله من بلد إلى بلد، وتقطع به المسافات البعيدة، في فترة قصيرة ﴿عَاصِفَةً﴾ أي شديدة الهبوب ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ أي إن أرادها عاصفة كانت عاصفة، وإن أرادها لينة كانت لينة ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي الشام، وذلك لأنها تجري بسليمان وأصحابه، حيث يشاء ثم يعود إلى منزله بالشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ فنجزه حسبما تقتضيه الحكمة.

﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَغْوُصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ (٨٢) ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾

﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي وسخرنا له من الشياطين ﴿مَنْ يَغْوُصُونَ لَهُ﴾ في البحار بأمره لاستخراج الدر، وما يكون فيها من نفائسها ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي غير ما ذكر كبناء المدن، والقصور، واختراع الصنائع النفيسة لقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ﴾ ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ أن يزيغوا عن أمره، أو يفسدوا على ما هو مقتضى جبلتهم.

واعلم أن أجسام هذا العالم، إما كثيفة، أو لطيفة، فأكثف الأجسام: الحجارَةُ، والحديدُ، وقد جعلهما الله تعالى معجزة لداود عليه السلام، فأنطق الحجر، ولين له الحديد، وألطف الأشياء الهواء، والنار، وقد

جعلهما الله معجزةً لسليمان عليه السلام، فسخر له الريح، وسخر له الجن، لأن الشياطين مخلوقون من النار.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٨٢)

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أي واذكر خبر أيوب عليه السلام حين دعا ربه ﴿أَنِّي﴾ أي بأني ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ بالضم خاص، بما في النفس كمرض وهزال ونحوهما ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وصفه تعالى بغاية الرحمة بعدما ذكر نفسه بما يوجبها، واكتفى به عن عرض المطلب، لطفاً في السؤال، وإنما شكى إليه تلذذاً بالنجوى، لا تضرراً منه بالشكوى، والشكاية إليه غاية القرب، كما أن الشكاية منه غاية البعد، وكان عليه السلام من ولد عيص بن إسحق عليه السلام، وكانت أمه من أولاد لوط عليه السلام، استنبأه الله تعالى، وكثر أهله وماله، وكان رحيماً بالمساكين، وكافلاً لليتامى والأرامل، وكراماً للضيف، وشاكراً لأنعم الله تعالى، فابتلاه الله بهلاك أولاده وذهاب أمواله، والمرض في جسمه، روي أن امرأته «رحمة» قالت له يوماً لو دعوت الله تعالى!! فقال: كم كانت مدة الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة، فقال أستحي من الله أن أدعوه، وما بلغت مدةً بلائي مدةً رخائي.

﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مِّمَّهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ (٨٤)

﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ﴾ أي أجبنا دعاءه وتضرعه، وأزلنا ما أصابه من ضر وبلاء ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مِّمَّهُمْ﴾ بأن ولد له ضعف ما كان، وولد له منهم نوافل ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ أي رحمة على أيوب، وتذكرة لغيره من العابدين، الصابرين على ما أصيبوا.

﴿وَأَسْمِعِمْ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلُّ مِّنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ .

﴿وَأَسْمِعِمْ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ أي واذكر قصة هؤلاء الأنبياء الكرام، إسماعيل، وإدريس، وذا الكفل عليهم السلام ﴿كُلُّ﴾ أي كل واحد من هؤلاء الأنبياء ﴿مِّنَ الصَّادِقِينَ﴾ على مشاق التكليف، وشدائد الحياة.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ .

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أي أدخلناهم في الجنة دار الرحمة ﴿إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي الكاملين في الصلاح والتقوى.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ .

﴿وَذَا النُّونِ﴾ أي واذكر صاحب الحوت، وهو «يونس» عليه السلام ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ أي مراغماً لقومه غضبان عليهم، لعدم استجابتهم لدعوته، إذ كان يدعوهم إلى الإيمان فيكفرون، ولا يصح أن يقال: مغاضباً لربه، إذ لا يناسب منصب النبوة، روي أنه خرج من بين أظهرهم بعد أن تمادى إصرارهم، مهاجراً عنهم قبل أن يؤمر، وظن أن ذلك يسوغ ﴿فَظَنَّ أَن لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي ظن أن لن نصيِّق عليه، وهو كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيِّق، وليس هذا عقوبة وإنما هو ابتلاء، كما جاء في الحديث الشريف «أشدكم بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»<sup>(١)</sup> ﴿فَنَادَى﴾ أي فكان ما كان من المساهمة، والتقام الحوت له،

(١) طرف من حديث رواه البخاري في المرضى، وابن ماجه في الفتن، وأحمد في المسند ١/١٧٣ .

فنادى ﴿ فِي الظُّلْمَتِ ﴾ أي في الظلمات الشديدة المتكاثفة: ظلمة بطن الحوت، والبحر، والليل ﴿ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ﴾ أي بأنه لا إله إلا أنت يارب فتداركني برحمتك ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أي أنزهك تنزيهاً من أن يعجزك شيء ﴿ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ لأنفسهم بتعريضها للهلكة، حيث بادرت إلى المهاجرة قبل الاستئذان.

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ دعاءه على الطف وجه وأحسنه، روى أبو هريرة مرفوعاً قال: أوحى الله تعالى إلى الحوت أن خذهُ، ولا تخدش له لحماً، ولا تكسر له عظماً، ﴿ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ ﴾ بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات دام في بطنه، وأراد بالغمّ غمّ الالتقام له ﴿ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي مثل ذلك الإنجاء البديع ننجي المؤمنين من الكرب والشدائد، إذا دعونا، واستغاثوا بنا بالإخلاص.

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ .

﴿ وَزَكَرِيَّا ﴾ أي واذكر خبره ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ بلا ولد يرثني ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ أي فحسبي أنت إن لم ترزقني وارثاً.

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَرَعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ﴾ .

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ دعاءه ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يُحْيِي ﴾ أي رزقناه غلاماً اسمه يحيى، وقد مر كيفية استجابة دعائه في سورة مريم ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ أي أصلحناها للولادة بعد أن كانت عاقراً لا تلد ﴿ إِيْتَهُمْ ﴾ أي الأنبياء عليهم السلام المذكورون جميعاً ﴿ كَانُوا يُسْكِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ تعليل لما فُضِّلَ من فنون إحسانه تعالى، المتعلقة بالأنبياء المذكورين، أي كانوا يبادرون في وجوه الخيرات، مع استقرارهم في أصل الخير، وهو السرُّ في إيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات، كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ ﴿ وَيَدْعُونَهَا رِجَالًا وَرِهَابًا ﴾ أي ذوي رَغَبٍ وَرَهَبٍ، راغبين للثواب، وخائفين من العقاب ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ أي مخبتين متضرعين، فالمعنى: إنهم نالوا ما نالوا، لاتصافهم بهذه الخصال الحميدة.

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ ١١ ﴾ .

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أي اذكر خبر التي أعفَّت نفسها عن الفاحشة، وعن الحلال والحرام، كما قالت: ﴿ لَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ والتعبير بالموصول لتفخيم شأنها، وتنزيها عما زعمه اليهود في حقها ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا ﴾ أي أحيينا عيسى في جوفها ﴿ مِن رُّوحِنَا ﴾ من الروح الذي هو من أمرنا، وقيل: فعلنا النفخ من جهة روحنا جبريل عليه السلام، والإضافة للتشريف ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ﴾ أي قصتهما، وحالهما ﴿ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ فإن من تأمل حالهما، تحقق كمال قدرته عزَّ وجلَّ.

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ ﴿ ٩٢ ﴾ .

﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ أي ملة التوحيد والإسلام، أشير إليها بهذه تنبيهاً على

كمال ظهور أمرها في السداد ﴿أُمَّتِكُمْ﴾ أي ملتكم وشريعتكم التي يجب أن تحافظوا على حدودها، وتراعوا حقوقها، والخطابُ للناس قاطبة ﴿أُمَّةٌ وَجِدَةٌ﴾ أي غير مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم السلام<sup>(١)</sup> إذ لا احتمال لتبديلها، كفروع الشرائع ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ لا إله لكم غيري ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ خاصة لا تعبدوا غيري.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كَلُّ الْيَنَارِ رَجُوعٌ﴾ ﴿٩٦﴾ .

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ التفات إلى الغيبة، لينعى على الذين تفرقوا في الدين تقبيح فعلهم، كأنه قيل: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكبوا في دين الله، الذي أجمعت عليه كافة الأنبياء عليهم السلام؟! ثم توعدهم بقوله ﴿كَلُّ﴾ أي كل واحد من الفرق المتحزبة ﴿إِلَيْنَا رَجُوعٌ﴾ بالبعث، فجازيهم بأعمالهم، وقوله ﴿فمن يعمل﴾ تفصيل للجزاء.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ﴾ ﴿٩٤﴾ .

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسوله ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ﴾ أي لا حرمان لثواب عمله، عبّر عن ذلك بالكفران الذي هو شر النعمة، لبيان كمال نزاهته تعالى، ﴿وَإِنَّا لَهُ﴾ أي لسعيه ﴿كَنُيُوتٌ﴾ أي مثبتون ذلك في صحائف أعمالهم.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٩٥﴾ .

(١) لا اختلاف في أصول الشرائع التي لا تتبدل بتبدل الأعصار، فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم دينهم واحد، وشرائعهم مختلفة، كما قال سبحانه: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ .

﴿ وَحَرَمٌ عَلَى قَرْيَةٍ ﴾ أي ممتنع على أهلها ﴿ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ قدرنا هلاكها لغاية طغيانهم ﴿ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي ممتنع البتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء، وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر، لأنهم المنكرون للبعث والرجوع<sup>(١)</sup>.

﴿ حَقٌّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدْبٍ .  
يَنْسِلُونَ ﴾ ﴿٩٦﴾ .

﴿ حَقٌّ إِذَا فُتِحَتْ ﴾ «حتى» للغاية كأنه قيل: يستمرون على ما هم عليه، حتى إذا قامت القيامة، يرجعون إلينا، ويقولون يا ويلنا الخ ﴿ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ قبيلتان من الإنس والمراد بفتحها فتح سدها ﴿ وَهُمْ ﴾ أي يأجوج ومأجوج ﴿ مِّن كُلِّ حَدْبٍ ﴾ أي نشز من الأرض، أي ارتفاع من الآكام، والتلال ﴿ يَنْسِلُونَ ﴾ أي يسرعون، وأصله مقارنة الخطوات مع الإسراع، والحَدْبُ بفتحيتين: ما ارتفع من الأرض.

﴿ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
يَتَوَلَّوْنَ أَقْدًا كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ﴿٩٧﴾ .

﴿ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ والمراد به ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب لا النفخة الأولى ﴿ فَإِذَا هِيَ ﴾ جواب الشرط وإذا للمفاجأة ﴿ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي مرتفع الأجنان لا تكاد تطرف من هول

(١) هذا وجه في تفسير الآية الكريمة، وروى الحافظ ابن كثير عن ابن عباس أن معنى الآية: ممتنع على أهل قرية أهلكتناهم، أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا مرة ثانية. ١ هـ يريد أنه من المستحيل عودتهم إلى الدنيا بعد الهلاك، حتى تقوم الساعة فيرجعون للحساب والجزاء.

ما هم فيه ﴿يَتَوَلَّوْنَا﴾ متعلق بمحذوف تقديره: يقولون يا ويلنا ﴿قَدَكُنَّا فِي غَفْلَةٍ﴾ تامة ﴿مِنْ هَذَا﴾ الذي دهمنا من البعث، ولم نعلم أنه حق ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي لم نكن غافلين عنه، حيث نُبِّهنا عليه بالآيات والذِّر، بل كنا ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ ﴿٩٨﴾

﴿إِنَّكُمْ﴾ خطاب لكفار مكة وتصريح بمآل أمرهم ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي أصنامكم ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ هو ما يرمى به ويهيج النار، الحَصَبُ بفتحتين: ما هُيِّئَ للوقود من الحطب ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ أي فيها داخلون، والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبا، روي أن رسول الله ﷺ تلا الآية، فقال له ابن الزبعرى: أليست اليهود عبدوا عزيزاً، والنصارى المسيح، وبنو مليح الملائكة، فردَّ عليه ﷺ فقال: أما علمت أن «ما لا يعقل، على أنهم لا يعبدون هؤلاء بل يعبدون الشيطان..»

﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءِ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوها وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ﴾ ﴿٩٩﴾

﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءِ﴾ أي أصنامهم ﴿ءَالِهَةً﴾ كما يزعمون ﴿مَا وَرَدُوها﴾ وحيث تَبَيَّنَ ورودهم إياها، تَعَيَّنَ امتناع كونها آلهة بالضرورة ﴿وَكُلٌّ﴾ من العبدة والمعبودين ﴿فِيها خالِدُونَ﴾ لا خلاص لهم عنها.

﴿لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَهُمْ فِيها لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾

﴿لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ﴾ أي أنين وتنفسٌ شديد ﴿وَهُمْ فِيها لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يسمع بعضهم زفير بعض، لشدة الهول والعذاب وفي السماع نوع أنس فلم يعطوه.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين، حسبما جرت سُنَّة التنزيل، من إيراد الترغيب إثر الترهيب ﴿ الْحُسْنَىٰ ﴾ أي الخصلة الحسنی وهي السعادة ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ إشارة إلى الموصول ﴿ عَنْهَا ﴾ عن الجحيم ﴿ مُبْعَدُونَ ﴾ لأنهم في الجنة، وشتان بينها وبين النار.

﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ .

﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ أي لا يسمعون صوتها سمعاً ضعيفاً، كما هو المعهود عند كون الشخص بعيداً، وإن كان صوته في غاية الشدة ﴿ وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ بيان لفوزهم بالمطالب، إثر بيان خلاصهم من المهالك، أي دائمون في غاية التمتع.

﴿ لَا يَخْزِنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَنَتَلَقَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

﴿ لَا يَخْزِنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾ بيان لنجاتهم من الأفراع بالكلية ﴿ وَنَتَلَقَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أي تستقبلهم مهنئين لهم ﴿ هَذَا يَوْمُكُمْ ﴾ أي قائلين هذا اليوم يومكم ﴿ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا، وتُبشرون بما فيه من المثوبات.

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ .

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ ﴾ الطيُّ: ضدُّ النشر، أي نطوي السماء طياً

﴿ كَطَيِّ السَّجَلِ ﴾ وهي الصحيفة أي طياً كطيّ الصحف ﴿ لِلْكَتَبِ ﴾ أي للكتب التي كتب فيها، فسجلها بعض أجزاءها، وبه يتعلق الطيُّ، فالسماوات تطوى كما تطوى الصحف والسجلات ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ أي نعيد ما خلقناه، إعادةً مثل بدئنا إياه، في كونها إيجاداً بعد العدم، والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على البداء، وأختلفوا في كيفية الإعادة؟ فمنهم من قال: إن الله يفرّق الأجزاء، ولا يعدها، ثم إنه يعيد تركيبها، ومنهم من يقول: إنه تعالى يعدها بالكلية، ثم إنه يوجد لها عينها مرة أخرى، وهذه الآية دالة على هذا الوجه، لأنه سبحانه شبه الإعادة بالابتداء، والابتداء ليس عبارة عن تركيب الأجزاء، بل عن الوجود بعد العدم ﴿ وَعَدًّا ﴾ مصدر مؤكد لفعله ﴿ عَلَيْنَا ﴾ إنجازه ﴿ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ لما ذكر لا محالة، فاستعدوا له بصالح الأعمال، للخلاص من هذه الأهوال، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إنكم محشورون إلى الله، حفاة، عراة، غُزلاً»<sup>(١)</sup>.

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِيَ

الصَّالِحُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ ﴾ هو كتاب داود عليه السلام ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ أي من بعد اللوح المحفوظ، أي وبالله لقد كتبنا في كتاب داود بعدما كتبنا وسطرنا في اللوح المحفوظ ﴿ أَنَّ الْأَرْضَ ﴾ أي أرض الجنة، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان وتمته ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إبراهيم عليه السلام، ألا وإنه سيجاء برجالٍ من أمتي، فيؤمر بهم ذات الشمال - أي إلى النار - فأقول أي ربّ أمّتي!! فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم بعد أن فارقتهم!! فأقول: سُخْفًا، سُخْفًا.

تَنْبِؤًا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ<sup>(١)</sup> وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقيل الأرض المقدسة، وهو قول الكلبي، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الآية ﴿يُرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أي المؤمنون، وهذا وعدٌ منه تعالى بإظهار دين الإسلام.

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾<sup>(١٦٦)</sup>.

﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ أي فيما ذكر في السورة الكريمة، من الأخبار والمواعظ، والوعد والوعيد، والبراهين على التوحيد ﴿لَبَلَاغًا﴾ أي لكفاية وموعظة ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي موحدّين مؤمنين، همُّهم الطاعة والعبادة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>(١٦٧)</sup>.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد بما ذُكر، وبأمثاله من الشرائع والأحكام، التي هي مناطٌ لسعادة الدارين ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قاطبة، فَإِنَّ ما بعثت به سببٌ لسعادة الدارين، ومنشأ، لانتظام مصالحهم في النشاطين، ومن لم يغتنم مغنم آثاره، فإنما فرّط في نفسه<sup>(٢)</sup>.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(١٦٨)</sup>.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي ما يوحى إليّ إلّا

(١) سورة الزمر، آية: ٧٤.

(٢) إن قيل: كيف قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ مع أن النبي ﷺ لم يكن رحمة للكافرين، لأنه أرسل بالسيف عليهم؟ فالجواب أن بعثه رحمة للكفار أيضاً، من حيث أن عقوبتهم أُخِّرت بسببه، وأمنوا به من عذاب الاستئصال، الذي كان يأخذ الله به المكذبين، من الأمم السابقة، ثم إن تعاليمه ﷺ رحمة لجميع الخلق لو عقلوها!!.

أن معبودكم هو إله واحد، لا شريك له في ملكه، وإنما جاء بصيغة الحصر «إنما» لأن التوحيد هو المقصود الأصلي من البعثة، وأما ما عداه فمن الأحكام المتفرعة عليه<sup>(١)</sup> ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؟ أي مخلصون العبادة لله تعالى؟.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلَّاءَ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرِبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ ﴿١١٧﴾.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام ﴿فَعَلَّاءَ﴾ لهم ﴿آذَنْتُكُمْ﴾ أي أعلمتكم إعلاماً واضحاً ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي على عدل واستقامة، بالبرهان النير، فلا حجة لكم بعد اليوم، فالمعنى: أعلمتكم ما أمرتُ به، كائنين على سواء في الإعلام، لم أطوه عن أحد منكم، وما فرقتُ بينكم في النصح وتبليغ الرسالة ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ أي ما أدري ﴿أَقْرِبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾؟ من غلبة المسلمين، وظهور الدين؟ ولا متى يكون ذلك العذاب لكم؟.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿١١٨﴾.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي يعلم ما تجاهرون به من الطعن في الإسلام، وتكذيب الآيات والرسول ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ من الإحن والأحقاد للمسلمين، فيجازيكم عليه.

(١) شريعة الرسول ﷺ عادلة كاملة، جاءت لخير البشرية جميعها، وحوث كل الفضائل الخلقية، والاجتماعية، فقد روي عن أبي داود يقول: كتبت عن النبي ﷺ خمسمائة ألف حديث، انتخبت منها أربعة آلاف حديث، وثمانمائة حديث، ويكفي للإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث، حديث «الأعمال بالنيات».. وحديث «الحلال بين، والحرام بين».. وحديث «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» وحديث «لا يكون المؤمن مؤمناً، حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه» ١ هـ.

﴿ وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ ﴿١١٦﴾ .

﴿ وَإِنْ أَدْرَى ﴾ وما أدري ﴿ لَعَلَّهُ ﴾ لعل تأخير جزائكم ﴿ فِتْنَةٌ لَكُمْ ﴾ استدراج لكم، لينظر كيف تعملون ﴿ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي تمتع إلى أجل مقدّر، تقتضيه مشيئته، المبنية على الحكيم البالغة .

﴿ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ﴿١١٧﴾ .

﴿ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ﴾ أي احكم بيننا وبين أهل مكة بالعدل ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ ﴾ أي كثير الرحمة على عباده ﴿ الْمُسْتَعَانُ ﴾ أي المطلوب منه المعونة ﴿ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ من الحال فإنهم كانوا يقولون إن الشوكة تكون لهم وإن المتوعد به لو كان حقاً لنزل بهم، إلى غير ذلك مما لا خير فيه، فاستجاب الله دعوة رسوله ﷺ فخيّب آمالهم، وغيّر أحوالهم، وأصابهم يوم بدر ما أصابهم!! والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، وصلى الله تعالى على خير خلقه، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنبياء» .

\*\*\*